وجملة القول إن الخلق هو أداء الواجب لذاته بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحى ضمائرهم وليبث فى نفوسهم شعور الرغبة فى الفضيلة والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء ومن أى طريق أراد

فليست الاخلاق محفوظات تحشى بها الأذهان بل ملكات تصدر عنها آثارها عفوا بلا تكلف ولا تعمل صدور الاشعة عن الكوكب والاريج عن الزهر

مصطفى لطفى المنفلوطى

اللورد فرنسيس بيكون

حياته — فلسفته

الدور الرابع من أدوار حياته

أعماله السياسية

تركنا بيكون فى المقال السابق ناشئاً ، وصل الى أوج عظمته السياسية ، وخطيبا يسترعى الاسماع ، ويملك القلوب ، ويتصرف فى العقول ، وعالما يصرف أوقات فراغه فى البحث عن دقائق العلوم ،

وينقب عن أسرار الطبيعة ، وعاملا مجدا نشيطا على توافر معدات نجاحه فى هذا الميدان ، وهى تنحصر كما سبق فى

(١) المال (٢) الجاه . فواصل توسلاته الى الملكة ، حتى حصل بعد جهد مجهد ، وسعى ممض ، على منصب يراه الناس عظيما ، ويراه حقيرا بشأن ذوى النفوس الكبيرة ، والهمم الوثابة . ذلك المنصب هو رتبة كاتب اول ، لأكبر محكمة بريطانية ، فى ذلك الوقت ، وهى محكمة استار تشمبر وكانت وظيفتها السنوية عظيمة ، تبلغ الفا وستمائة جنيه . وكان لمن يتولى هذا المنصب منزلة رفيعة ، ونفوذ عظيم فى قومه. لا شك فى أن هذا القدر من المال يكفى لأن يعيش بيكون ، موفور الكرامة ، ناعم البال ، قرير العين ، وأن درجة نفوذه ، فى الدوائر الرسمية ، تمكنه من جمع مايريد من المعلومات ، والاستعانة بمن يريد من رجال الأعمال الحكومية ، الذين أصبح من أعلام شأنا ، وأعظمهم نفوذا . غير أن بيكون لم يقنع بكل هذا . ذلك لأنه مع اتصافه بما جل من صفات الحكماء ، ونبل من غرائز العلماء ، وشرف من صفات الأدباء ، كان شديد الرغبة فى أن يكون موفور المال ، عزيز الجانب ، لا حرصا على هذا المال ، ولا حبا فيه ، ولا طمعا فى كنزه وادخاره ، بل ليتوصل به الى أغراضه . زد على ذلك أن رغبته فى العيش الطريف ، وسكنى القصور ، لم تنقص عن رغبته فى استكشاف الحقائق العلمية ، فلم يكن بالفيلسوف الراغب عن الدنيا

المتبط بالخلق من الثياب ، الهانئ بالمنظر الرث ، بل كان أنيقا ، جميل الهندام ، حسن البزة ، مغرما بسكنى القصور الشاهقة ،ذات المقاصير الفاخرة ، والموائد الانيقة ، والأثاث الجميل ، والرياش المعدوم النظير راغبا مع كل هذا فى الحصول على الألقاب الرسمية ، والتحلى بالاوسمة والشارات رغبته فى الوقوف على اسرار الطبيعة ، وادراك كنه الكون لهذا كله لم يكن المال غايته المقصودة ، ولا ضالته المنشودة ، بل كان كما ذكرنا وسيلة لتحقيق أغراضه ، والوصول الى آماله . لذلك كان لا يبقى ولا يذر ، ينفق كل ما يحصل عليه فى يوم ، غير مكترث بما يصادفه فى غده ، مع كثرة ما انتابه من النوائب ، وما حل به فى ماضيه من الاحن .

كأنك عن كيد الحوادث راقـد

وما أمنته فى السماء الفراقـد

وما ابتسمت أيامه النكد عن رضى

ولكن تحاشى والصدور حواقـد

فقضت عليه هذه الميول ، وتلك المظاهر ، بالبحث عن مصادر أخرى للمال ، والاعتقاد بأن منصبه ليس بذاك الذى يوصل الى غايته ، ويحقق آماله وآمانيه . فاتصل برجل من أشهر النبلاء ، وأنبه العظماء ذى سلطان عظيم ، ونفوذ كبير لدى الملكة ، ومن اكثر العظماء اتصالا برجال البلاط ، ورؤساء المصالح والدواوين . ذلك هو ايرل اسكس . فساعد بيكون مساعدة جدية مادة وأدبا وعينه مستشارا سريا له

سنة ١٥٩١ بوظيفة عظيمة لم تعرف بالدقة . فبذل بيكون كل ماق مقدوره فى خدمة ذلك الأمير ، وفاء بحق نعمته عليه ، وأملا فى نيل أغراضه على يديه .

بينا بيكون ناعم البال ، قد هزت النعمة من عِطفه ، ولاحت اريحية السرور على وجهه ، ولمع فى عزته نور الغبطة والهناءة ، عقد مجلس النواب الذى لا يزال عضوا فيه ، فى فبراير سنة ١٥٩٣ ، وكان بيكون نائبا عن ميدل سكس . وكان الباعث على عقد البرلمان عظيما ، وهو الوقوف على مكيدة جديدة ، من المكايد العدة ، التى كان يدبرها البابا ضد الملكة مما جعل حكمها مضطربا ، ومركزها قلقا . وكانت المكيدة رهيبة مخيفة ، قضت على الحكومة بزيادة قوتها البرية والبحرية ، وفرض ضريبة عظيمة على الشعب ، تفى بالنفقات الضرورية لهذه الزيادة . فارسل مجلس اللوردات رسالة الى مجلس النواب ، يطلب فيها على غير سابقة ، أن يتفاوض أعضاء المجلسين مجتمعين ، فى المسألة المعروضة على بساط البحث ، على أن مجلس اللوردات فى الوقت نفسه ، شكل لجنة ، وقررت جمع اعانة كبيرة ، فى وقت قصير . عرض هذا القرار على مجلس النواب ، فقام بيكون ، بما عرف عنه من قوة العارضة ، واحكام السبك وتخير الالفاظ ، التى لا ظل عليها للابتذال ، ولا أثر فيها للهُجْر ، وبما عهد فيه من لسان بليل ، ومنطق خلاب ، وخاطر سريع ، وذهن حاضر ، وأنحى على اللوردات باللائمة ، وأغلظ لهم فى القول ، وشهر بفعلتهم ، وأظهر أن رغبتهم فى البحث والمناقشة

مع مجلس النواب فى مكان واحد ، خرق للقانون ، وتعد على حقوق النواب، وانتهاك للتقاليد ، وامتهان لحرمة العادات، وبخاصة المناقشة فى الامور المالية التى كان للنواب فيها ميزة خاصة . وقرر أن آراء اللوردات يجب أن تجرى فى الوصول الى النواب على عادتها المألوفة ، وأن تسير فى طريقها المعروفة ، من بحثها فى قاعة مجلسهم ، ثم ارسالها الى مجلس النواب لينظر فيها منفردا ، فى مكانه الخاص به ، تفاديا من التأثير في نفوسهم ، وتخلصا من الخداع والتغرير بهم . فقبل اقتراح بيكون ، ورفض المجلس المفاوضة مع اللوردات فى هـذا الموضوع ، على هذه الشاكلة . أخذت المسألة سيرها المألوف ، ولما عرضت على مجلس النواب ، وافق بيكون على جمع الضريبة ، الا أنه عارض فى جمعها فى ذلك الوقت القصير ،وقرر وجوب تخفيضها . معللا ذلك بأن الشعب لا طاقة له على دفع تلك الضريبة الفادحة ، فى ذلك الوقت القصير . فخالفه النواب فى ذلك، وقام الشعب بدفع الضريبة فى الزمن المحدود دون أن يظهر امتعاضا أو يبدى تألما ، أو احجاما عن تحقيق رغبات الملكة ، وان كان الواقع غير هـذا ، فان ألم الشعب كان عظيما ولم يكن فى مقـدور أحد ، المجاهرة فى هذا الوقت العصيب بما يكنه فى نفسه

ولو قبلت أمر المليك جنوبنا
لما قبلتها فى الظلام المراقـد

مشى المشاءون ، وهمز الهمازون ، ولمز اللمازون ، وسعى الساعون ببيكون الى الملكة والقوا فى روعها بأن بيكون يعمل على جمع قلوب الناس حوله ، وتفريقها من حولها . فثارت ثائرتها ، واشتد حنقها على بيكون ، فأمرت بفصله من جميع المناصب الحكومية .

ومن عاش بين الناس لم يخل من أذى
بما قال واش أو تكلم حاسد .

فأخذ يسترحم ولا راحم ، ويعتذر مما فرط منه ولا عاذر ، ويستعطف ولا عاطف ، وجمدت الملكة وقسا قلبها ، فلم يفد لديها تذلله واستغفاره ، وندمه على ذنبه الموهوم ، كما لم يجد توسل صديقه وصديق الملكة ايرل اسكس . فأصبح بيكون الحذر وقد أتى من مأمنه ، فتقطعت أحشاؤه ، حزنا ولهفا ، وحلت بساحته الأحزان ، وتبين فى وجهه الأسى والكمد ، وصار كاسف الوجه ، خاشع الطرف ، مضطرب البال ، مكروب النفس ، محزون الصدر ، لهيف القلب على عيش رغيد مضى ، وزمن هنيء انقضى ، ولكنه تعود ذلك من دهره ، وتعلم كيف يصبر على محنه ، وعرف كيف يتخلص من نوبه .

عرفت سجايا الدهر أما شروره فنقد وأما خيره فوعود
إذا كانت الدنيا كذاك خلقها ولو ان كل الطالعات سعود

أصبح بيكون وقد أفل نجمه ، وغربت شمسه ، وغار سعده ، فى فقر مدقع ، وعيش ممض . ولقد خفف من لوعته ، ولطف من

محنته ، ما كان يعده به صديقه ، ايرل اسكس غير أنه مع هذا ، أضحى مثقلا بالديون غارقا فى بحار الهموم .

وقد يخمل الانسان فى عنفوانه ويتبه من بعد النحي ويسود

دام بيكون على هذه الحال التعسة زمنا طويلا ، حتى قضت الملكة ، وجلس على عرش بريطانيا الملك جيمز الأول فكان ذلك مبدأ عصر جديد فى حياة بيكون ، عصر سعادة وسؤدد ، وقوة وسلطان ونفوذ ، ترادفت عليه فيه النعم ، فجمع بين تالدها وطريفها ، وسكن اليه الملك جيمز ، واطمأنت نفسه اليه ، وناط به ثقته ، فأطلعه على دخائله ، ووكل اليه أمر الملك وتدبيره ، وعينه مستشارا له فى سنة ١٦٠٤ . فعاودته السعادة وابتسم له الدهر ، وأقبلت عليه الدنيا ، وهو على ما هو عليه من جد وعزم وثبات ، يعالج أمور الدولة بما فطر عليه من حكمة وعزيمة وأناة ، ويلتمس الوسائل ، ويحتال الحيل لتوطيد دعائم الملك ، وتذليل صعاب الامور ، فيستفرغ فيها وسعه ، ويستنفد طاقته ، حتى أصبح فى نظر الملك رجل الدولة الفذ ، وعميدها الأعظم بعد أن ذاق الأمرين فى آخر أيام الملكة ، ولكن الدهر أبو العجائب .

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

وهكذا كان شأن بيكون فى جميع أطوار حياته ، قضت عليه الملكة ، وهو فى أبهى مظاهر سعده ، ثم أنقذه جيمز ، وهو فى أشد أيام بؤسه . لم يقف أمره عند ذلك بل عينه فى سنة ١٦٠٧ نائبا (محاميا)

عمومياً . فزاد عظمة على عظمته ، ونفوذا فوق نفوذه ، وهو مع كل هذه المناصب الرفيعة ، والمراتب السامية ، عضو عامل فى مجلس النواب ، بل قائد من قواده ، وزعيم من أعظم زعمائه .

على أن كل هذه المشاغل ، مع ما بها من عظمة ، وما تستوجبه من جهد ، لم تحل بينه وبين اشتغاله بالعلم ، فى أوقات فراغه ، التى كان يضن بها على من يتقربون منه ، لا حبا واخلاصا ، بل تملقا ونفاقا ، فكان ينفر منهم ، ويبتعد عنهم ، وقول المعرى يتردد فى خاطره

ومن يك حظه منكم دنوا فان أجل حظى فى البعاد
أذاة من صديق أو عدو فبؤس للأصادق والأعادى

هذا ولا بد فى هذا المكان من بيان الفرق بين بيكون الفيلسوف الباحث عن الحقيقة ، وبين بيكون النائب العمومى . ان الفرق بينهما كالفرق بين الملائكة فى طهارتهم ، وسمو أخلاقهم ، وبين الشياطين فى خبثهم ، وسوء طباعهم . لذلك وجب على من يريد الحكم على بيكون ، أن يدرسه من جميع نواحيه ، أى يحكم عليه فيلسوفا مهذبا ، ، كريم الطبع ، جميل السجايا ، حلو الشمائل ، باحثا عن اسرار الكون متفانيا فى خدمة الانسانية ، وترقية الجنس البشرى ، وقاب الفلسفة النظرية رأسا على عقب ، ثم يدرسه سياسيا كرجل خاضع لأحوال عصره ، ومقتضيات الحكم فى قومه ، بذلك يجد أن بيكون العالم الفيلسوف سابق لأوانه ، فذ فى أبناء عصره ، من حيث الافكار والمعلومات والابحاث العلمية ، وأنه من أعظم الناس شجاعة واقداما فى ميدان

المبتكرات العلمية . ثم يجد بيكون النائب العمومى من أشد الناس عنادا ، وأمرهم عودا ، وأصلبهم مكسرا ، فى تنفيذ الجرائم الشنيعة ، والعقوبات الصارمة . تناقض غريب ، وتباين مدهش فى أخلاقه التى تختلف باختلاف الاعمال والمراتب والمناصب ، ولكن هذه صفات كثير من العظماء والنابهين

ألا إن أخلاق الفتى كزمانه فمنهن بيض فى العيون وسود

لقد كان بيكون فى مكتبه الخاص ، يصرف أوقاته الغالية ، وجهوده الثمينة ، وقواه النادرة ، فى تحقيق آماله العظيمة ، وأمانيه الشريفة ، وأغراضه النبيلة ، من خدمة الانسانية ، وتوسيع ميدان سعادة الجنس البشرى ، وهو فى ذلك المثل الاعلى فى الاخلاص للحقيقة ، والهيام بالوقوف على أسرار الكون ، ولقد كانت تعتوره من جراء اجهاده فكره ، واتعابه جسمه ، أمراض عدّة ، ونوبات عصبية شديدة ، فما كان ليعبأ بها ، ولا ليعيرها أدنى عناية ، حتى زاد تحولا على تحوله ، وضعفا على ضعفه

وتأكلنا أيامنا فكأنما تمر بنا الساعات وهى أسود

على أنه متى فارق مكتبه فى منزله ، وترك البيئة العلمية ، وذهب الى المحكمة ، واندمج فى وسط الناس ، أصبح غليظ الطبع ، جافى الخلق قاسى القلب ، منصرفا عن كل شىء ، الا عن التحايل فى اثبات أدلة الاتهام . لذلك تعذر حكم معاصريه عليه ، وتباينت آراؤهم فيه ، وبخاصة بعد أن تولى مناصبه العديدة الأخرى التى سنذكرها ونذكر ما كان من أمره فيها فى المقال المقبل ان شاء الله

أبو الفتح الفقى